هل فرضية الله مُستبعدَة؟ ردٌّ على دوكينز[1]

لوغان بول غايج[2]

«لا شيءَ أبسط من العظمة؛
ألا أن تكون بسيطًا هو أن تكون عظيمًا.»
رالف والدو إمرسون[3]

١. مقدّمة

رُغم الشــهرة التسويقية التي يتمتّعُ بها الملحدون الجدد، فقد رفضَ فلاسفةُ الدِّين المحترفون عمومًا التفاعُل بشــكلٍ جدّيٍ مع الاحتجاجات التي يطرحها هؤلاء[4]. في الواقع، ثمّة شُــحٌ مدهشٌ في الاحتجــاج المباشر الموجّه ضدّ وجود الله في المؤلّفات الرئيسية للملحدين الجدد، ولكن يوجدُ استثناءٌ ملحوظٌ في هذا

1. Gage, Logan Paul. “Is the God Hypothesis improbable? A response to Dawkins.” In A New Theist Response to the New Atheists, edited by Kevin Vallier & Joshua Rasmussen. New York: Routledge, 2019.

٢. أستاذ في الفلسفة في جامعة فرانسيسكان في ستوبنفيل (Franciscan University of Steubenville).

3. Emerson, The Complete Works of Ralph Waldo Emerson, 165.

٤. ألّف الفلاسفة عددًا من مراجعات الكتب، ولكنّ النقاش الجدّي كان ضئيلًا. نذكر من بين الاستثناءات المصدرين التاليين:

Wielenberg, “Dawkins’s Gambit, Hume’s Aroma, and God’s Simplicity”; Plantinga, Where the Conflict Really Lies: Science, Religion, and Naturalism, 13-30.

المسار وهو ما وردَ في كتاب دوكينز «وهم الإله»[1]. بما أنّ الصمتَ أحيانًا هو أسوء من النقد، فإنّني سوف أسعى في هذا الفصل إلى تقويم الوضع الحالي. يُشكِّلُ الملحدون الجدد قوةً مهمة ثقافيًا، وعدم تفاعل الفلاسفة معهم جاء على حساب فقدان الصلة الثقافية. وعليه، رغم تشكيكات المجتمع الفلسفيّ، فإنني أنوي تحليلَ حجّة ريتشارد دوكينز المعروفة بـ«مُناورة ٧٤٧ القصوى[2]» -التي يصفها بأنّها «الحجّة المحورية في كتابي[3]»- ونقدها.

٢. «مُناورة ٧٤٧ القصوى»

سوف أُركِّزُ هنا على حجّة دوكينز الرئيسية التي يُطلِق عليها «مناورة ٧٤٧ القصوى»[4]. ليست هذه الحجّة أهمّ حجّة لأبرز مُلحدٍ جديد فحسب، بل قد دعمها أيضًا الملحدون الجدد الآخرون وبالتالي اكتسبتْ شكلًا من المكانة المعتمَدة. لا يتردّد دوكينز في وضع ثقةٍ هائلةٍ في حجّته مُدّعيًا أنّها «تُظهِرُ أنّ الله، رغم عدم إمكانية نفي وجوده تقنيًا، إلا أنّه مُستبعد للغاية» و«الحجّة جدية جدًا ضدّ وجود الله» ممّا يجعلُ «فرضية الإله... غير قابلة للدفاع»[5]. يُناصِرُ هاريس

1. The God Delusion

2. Ultimate 747 Gambit

3. Dawkins, The God Delusion, 157.

سوف أُحلِّلُ في هذا الفصل الحجّة المركزية التي يطرحها دوكينز. للاطّلاع على سردٍ وضعيٍ لتبرير الإيمان بالإله، راجع المقالة التالية التي سوف تصدر:

Gage, and McAllister, “The Phenomenal Conservative Approach to Religious Epistemology”.

٤. التسمية هي إشارة إلى العبارة المزعومة لفريد هويل (Fred Hoyle)، عالم الفلك وعالم الرياضيات الإنكليزي الشهير، التي تُفيدُ أنّ احتمال نشوء الحياة بشكلٍ طبيعيٍ على الأرض هو أعلى بقليل من احتمال اكتساح إعصارٍ لساحة خردة وتركيبه لطائرة بوينغ ٧٤٧.

5. Dawkins, The God Delusion, 109, 157, 158.

حجّــة دوكينز بالاســم، ويُمكن أن نعثر على مســارٍ احتجاجــيٍ مُماثل فيما كتبه هيتشــنز[1]. أمّا دينيت، فهــو يُوافقُ على الحجّة بل ويصفها أنّهــا «تفنيدٌ غير قابلٍ للإبطال، وهي فتّاكةٌ في يومنا الحالي كما كانت حينما وظّفها فيلون لإلحاق الهزيمة بكليانثس في كتاب هيوم «المحاورات» قبل قرنين من الزمن[2]»[3].

بغــضِّ النظر عن ثقة دوكينز، من الشــائع أنّ نقاط الضعف التي تعتري أيّ حجّةٍ تبقى مخفيّة قبل أن تُعرَض في خطواتٍ واضحة. كما عادة الفلاسفة، سوف أعرضُ حجّة دوكينز بأوضح طريقةٍ ممكنةٍ قبل أن أحاول نقدها. أدعو القرّاء من جميع المعتقدات إلى الإقبال والاستدلال العقلي معي. فلنرَ إذا كانت حجّة دوكيز الرئيســية ضدّ وجود الله قويةً بالمقدار الــذي يدّعيه دوكينز وغيرُه من الملحدين الجدد.

سوف أُقدِّمُ فيما يلي أفضل إعادة صياغة من قِبلي لحجّة دوكينز الأساسية:

١. إذا صحّت الشروط الثلاثة اللاحقة:

أ) ثمّة تفسيرات طبيعية مُمكنة للخصائص المصمَّمة ظاهريًا في عالمنا،

ب) لا توجد حجج معقولة على وجود الله إلا الحجّة المبنيّة على التعقيد المنظّم (أي الحجّة المبنيّة على التصميم)، و:

ج) الله ليس تفسيرًا جيدًا للتعقيد المنظّم الموجود في العالم،

فالله غير موجود على نحوٍ قطعيٍ تقريبًا.

٢. ثمّة تفسيرات طبيعية ممكنة للخصائص المصمَّمة ظاهريًا في عالمنا.

---

1. Harris, Letter to a Christian Nation,73; Hitchens, God Is Not Great: How Religion Poisons Everything, 71.

2. Dialogues two Centuries Earlier

3. Dawkins, The God Delusion, 157.

٣. لا توجد احتجاجاتٌ معقولة على وجود الله إلا الحجّة المبنيّة على التعقيد المنظّم.

٤. الله ليس تفسيرًا جيدًا للتعقيد المنظّم الموجود في العالم.

٥. إذًا، الله غير موجود على نحوٍ قطعيٍ تقريبًا.

تتمثّلُ الفكرة في أنّه لو كانت (أ) و(ب) و(ج) جميعها صحيحة، فإنّ النتيجة (أي أنّ الله غير موجود على نحوٍ قطعيٍ تقريبًا) ينبغي أن تكون صحيحةً أيضًا. الحجّة صحيحة، وهذا يعني أنّها تملكُ بُنيةً صحيحةً تؤدّي إلى نتيجتها، فصدقُ المقدمات يؤدّي إلى صدق النتيجة. وعليه، فإنّ وظيفتي هي فحصُ المقدمات الرئيسية لأنّ الاستنتاجَ يكونُ قويًا فقط بمقدار قوّة المقدمات التي يعتمدُ عليها.

٢- ١) فحصُ الفرضية (١)

أودُّ فقط أن أذكر فيما يتعلّقُ بالفرضية الأولى كيف يفهم دوكينز مُفردة «الله». يرى الفلاسفة والتقاليدُ التوحيدية المتصدِّرة أنّ اللهَ هو أعظم كائنٍ مُمكن (أي هو كامل من حيث القوّة والعلم والخير). أمّا دوكينز، فإنّه يتعاملُ مع مفهومٍ مُختلف. يُعرّف دوكينز «فرضية الإله» على أنّها الفرضية التي تُفيدُ أنّه «يوجد ذكاءٌ فوق البشر خارق للطبيعة قد صمّمَ الكون وكلَّ شيءٍ فيه وخلقه عن قصد، بما فيه نحن»[1]. إضافة إلى ذلك، دوكينز واضحٌ تمامًا في زعمه أن «لا مكان للخير في تعريف فرضية الإله، بل هو مجرّد مُلحَق مرغوب»[2]. ولكن يرى فلاسفة الدِّين أنّ هذا التعريف غريبٌ للغاية[3]. هذا التعريف يُعرِّضُ دوكينز إلى الاتّهام

1. Ibid, 31.

2. Ibid, 108.

3. Swinburne, The Christian God.

تحتجّ الفصول ٦ و٧ من هذا الكتاب، وخصوصًا ص١٥١ والصفحات التي تليها، بقوةٍ على أنّ خيرَ

البسيط المتمثِّل في أنّه قد أظهرَ أنّ موجودًا إلهيًا مُحدّدًا[1] هو بعيد الاحتمال ولكن ليسَ الموجود الذي يعتقدُ به المؤمنون بالإله المتمرِّسون فعلًا. سوف أضعُ هذا الاتّهام جانبًا فيما يلي.

٢- ٢) فحصُ الفرضية (٢)

فلندقِّق النظر في الفرضية (٢) الآن: ثمّة تفسيراتٌ طبيعية ممكنة للخصائص المصمَّمة ظاهريًا في عالمنا. من المهم أن نُلاحظ مدى صِغر العبء الذي يعتبرُ دوكينز أنّ الإلحاد يحمله: لا يتوجّب على الملحدين أن يملكوا رواياتٍ معقولة جدًا أو تفصيلية عن المسارات الطبيعية التطوُّرية التي تسيرُ وفقها كثيرٌ من الأشياء المعقدّة في الميدان البيولوجي، ولا يلزم أن يملكوا تفسيرًا لأصل الحياة الأولى والكَون والوعي والأخلاق الموضوعية أو الضبط الدقيق في قوانين الفيزياء. دوكينز صريحٌ تمامًا في اعتقاده أنّ هذه التفسيرات الطبيعية هي غير مُتاحة على الأغلب، ولكنّه يعتبرُ أنّه إذا لم يكن الله تفسيرًا جيدًا لنشوء الحياة أو غيرها من الخصائص المصمَّمة ظاهريًا في الكون كما تؤكِّدُ المقدمات الأخرى للحجّة، فإنّ أيَّ روايةٍ طبيعية مُمكنة سوف تكونُ كافيةً لإظهار أنّ وجود الله مُستبعد للغاية.

وعليه، لا يكترثُ دوكينز بأنّ الملحدين لا يملكون بالفعل تفسيراتٍ طبيعية جيدة جدًا للضبط الدقيق الذي تتّسمُ به قوانينُ الفيزياء، فضلًا عن العديد من الأمور الأخرى. يرى دوكينز أنّ نظرية التطوُّر الداروينية هي نظريةٌ طبيعية قوية بحيث يجب أن نسمح لها أن ترفعَ وعينا[2]؛ وإذا كان ثمّة نظرية بهذه القوّة في

الله يترتّبُ على كونه عالمًا بشكلٍ مطلق وقويًا بشكلٍ مطلق.

1. particular

2. Dawkins, The God Delusion, 114-119.

البيولوجيا توضّح كيفية ظهور التصميم، فعلينا أن نعتقد بأنّه سوف تبرز نظريةٌ (في المستقبل) تُفسِّر ظهورَ التصميم في قوانين الفيزياءأيضًا. وعليه، يكتبُ دوكينز:

«ليس لدينا لغاية الآن [نظرية] موازية للفيزياء. قد يؤدّي مبدئيًا صنفٌ ما من نظرية تعدُّد الأكوان العملَ التفسيري نفسه بحقّ الفيزياء كالذي تفعله الداروينية بحقّ البيولوجيا... لا ينبغي أن نفقدَ الأمل بروز [نظريةٍ] أفضل في الفيزياء، شيء بالقوّة نفسها كالداروينية بحقّ البيولوجيا. ولكن حتّى في غياب [نظريةٍ] مُرضية بشكلٍ قوي تُوازي النظرية البيولوجية، فإنّ [النظريات] الضعيفة نِسبيًا التي نملكها في الحاضر هي... بشكلٍ بديهيٍ أفضل من... فرضية المصمم الذكي التي تقوض نفسها بنفسها.»[1]

النقطة هي أنّه لو تمكّن الفردُ فعلًا من إظهار عدم وجود أدلةٍ جيّدة على وجود الله، ومن ضمنها الاحتجاجات المبنيّة على التصميم، فإنّ الإلحاد يتقدّم بشكل افتراضي. بعد أن احتّج دوكينز على أنّ الأدلّة الإيمانية غير ناجِحة، يرى أنّه يُمكن للملحدين أن يجلسوا ويُصدروا بعضَ الملاحظات التعهُّدية بأنّ العلم الطبيعي سوف يُقدِّمُ في المستقبل تفسيراتٍ طبيعية مُفصّلة تمامًا لكلّ شيء، ومن ثمّ يقفون جانبًا. هذا يُوزاي نقلَ عبء الإثبات[2]: لا يستطيعُ أن يُقدِّم الإيمان بالإله تفسيرًا جيدًا لما يحتاجُ فعلًا للتفسير في عالمنا، وبالتالي يجب أن تكون التفسيرات الطبيعية أفضل.

---

1. Ibid, 158.

لقد بدّلتُ في هذا المقطع كلمة «النظرية» مكان «الرافعة» لتفادي الخلط. يتحدّث دوكينز هنا عن نوعين مختلفين من النظريات مُوظّفًا مصطلحيّ دِينيت «الرافعات» و«العقّافات الجوية». راجع الكتاب التالي:
Dennett, Darwin's Dangerous Idea: Evolution and the Meanings of Life.

2. burden of proof

قــد يتمّ تعزيز تفكير دوكينز هنا من خــلال الفكرة التي تُفيدُ أنّه بما أنّ العلم الطبيعي يملكُ ســجلًا من النجاح، فمن الأكثر حكمةً ومعقوليةً أن نفترض أنّ العلم الطبيعي سوف يسدّ جميعَ الثغرات في النهاية ضمن روايةٍ طبيعية تمامًا حول الكَون. رغم أنّني أتفهم هذه القناعة الضمنية، ولكن من الخطأ أن نســتنتج بأنّ نجاحَ العلم الطبيعي قد أكّد الإلحاد أو حتّى إمكانية وجود روايةٍ طبيعيةٍ كاملة. بالتأكيد، عزّزَ العلم الطبيعي فهمَنا للعالم الطبيعي، ولكنّه قد كشــفَ من خلال ذلك عن المزيد من الألغاز التــي تُواجِهُ الرواية الطبيعية. قبل مدّة قصيرةٍ فقط، كان يعتقدُ علماء الطبيعة البارزين من أمثال داروين أنّ الخليّة هي بشكلٍ أساسيٍ كتلةً هلامية، ولكنّنا نعلمُ الآن أنّ الخليّة تحوي عالمًا مُصغّرًا من التعقيد المدهش وهــي حافلة بتكنولوجيا النانو وبرمزٍ رقمي. كذلــك، وبفضل التقدُّم في العلم الطبيعي، نحن نفهمُ قوانين الفيزياء حاليًا بشــكلٍ أفضل ولكنّنا نُريدُ أن نعرف الآن لماذا هذه القوانين هي كلّها مضبوطة بشكلٍ دقيقٍ للغاية على نحوٍ يُتيحُ الحياة المعقَّدة[1]. بشكلٍ مُشابه، انتصرَ النجاح المتوقَّع لكوزمولوجيا الانفجار الكبير في القرن العشرين على النظريات المنافِســة وزاد فهمنا لبداية الكون، ولكن من غير المنطقيّ أن نقترح بأنّ كوزمولوجيا الانفجار الكبير تُعدُّ فوزًا للإلحاد. بالعكس، فقد وضعت مُلحــدي القرن العشرين في موقع الدفاع. عبّرَ اللاأدريّ الشــهير وعالِم الفيزياء والفلك في وكالة ناسا روبرت جاسترو عن الطبيعة المربكة للحال في نهاية القرن العشرين حينما كتبَ التالي:

«نحــنُ نرى الآن كيــف أنّ الأدلّة الفلكيــة تقودُ إلى رؤيــة الكتاب المقدّس حول أصل العالم. تختلفُ جميعُ التفاصيل، ولكنّ العنصر الجوهري في الروايات

1. Collins, “The Teleological Argument: An Exploration of the Fine-Tuning of the Universe”.

الفلكية وروايات الكتاب المقدّس في سفر التكوين هي مُماثلة؛ سلسلة الأحداث المؤدّية إلى البشر قد بدأت فجأةً وبحدّة، في نقطةٍ مُحدّدة من الزمن، في ومضةٍ من الضوء والطاقة»[1].

يُواصِلُ جاسترو في مقطعٍ شهير:

«نودُّ الآن أن نتتبّع ذلك السؤال إلى الوراء زمنيًا، ولكنّ العقبة أمام التقدُّم الإضافي تبدو غير قابلة للتجاوز. ليس الأمر مسألة سنةٍ أخرى، أو عقدٍ آخر من العمل، أو قياس آخر، أو نظرية أخرى؛ يبدو في هذه اللحظة وكأنّ العلم الطبيعي لن يقدر أبدًا على رفع الستار عن لُغز الخَلق. للعالِم الذي عاش عبر إيمانه بقوّة المنطق، تنتهي القصّة مثل كابوس. لقد تسلّقَ جبلَ الجهل وهو على وشك فتح أعلى قمّة، وحينما يرفعُ نفسَه على الصخرة الأخيرة، تُرحِّبُ به مجموعةٌ من علماء اللاهوت الجالسين هناك منذ قرون.»[2]

حاول ستيفن هوكينغ وآخرون أن يُطمئنوا الطبيعيانيين أنّه ما زالَت بحوزتهم أوراقٌ مُتبقّية ليلعبوها[3]، ولكنّ هذا يُساهمُ فقط في إظهار أنّ القرن الأخير من الكوزمولوجيا لم يُقدِّم شيئًا يقربُ من الدعم القاطع للإلحاد.

اعترفَ دوكينز في كتاب «تفكيك قوس القزح»[4] أنّه رغم أنّ التفسيرات العلمية تُعزِّزُ فهمنا، إلا أنّها كثيرًا ما تقودنا إلى ألغازٍ أعمق. على سبيل المثال، قد يكونُ اكتشاف طيف الضوء قد حلَّ لُغزَ قوس قزح، ولكن بما أنّه قد أدّى إلى الاكتشافات المحيِّرة للعقل التي توصَّلَ إليها ماكسويل وأينشتاين وآخرون، يبدو

1. Jastrow, God and the Astronomers, 14.

2. Ibid, 106-107.

3. Hawking, A Brief History of Time.

4. Unweaving the Rainbow

أنّه قد أسفرَ عن ألغازٍ أكثر من تلك التي قد حلّها. «لا تفقدُ الألغاز شاعريتها حينما تُحلّ، بل على العكس تمامًا؛ كثيرًا ما يتبيّن أنّ الحلَّ هو أجمل من اللغز، وبأيِّ حالٍ حينما تحلّ لُغزًا فإنّك تكشفُ ألغازًا أخرى، ربما لإلهام شاعريةٍ أكبر»[1]. وعليه، رغم أنّ إعجابَ دوكينز بالعلم الطبيعي ونجاحاته هو أمرٌ مفهوم، إلا أنّه يكونُ من التجاوز أن نفترض أنّ التقدُّم العلمي في المستقبل سوف تدعمُ الإلحاد على نحوٍ صريح. في الواقع، الواقع الماديّ هي أشدّ غموضًا على المذهب الطبيعي[2] من أيّ وقتٍ مضى -ليس بسبب جهلنا بل بسبب فهمنا المتنامي. على أقلّ تقدير، لم يُثبَت أنّنا نملك -أو سوف نملك- تفسيراتٍ طبيعية مُمكنة حقًا لجميع الخصائص المصمَّمة ظاهريًا في عالمنا، ومن بينها «الضبط الدقيق الظاهري المتيح للحياة» في العالم الطبيعي نفسه.

٢- ٣) فحصُ المقدمة (٣)

ومع ذلك، ومن باب التسامح، فلنضع هذه المخاوف بشأن المقدمات السابقة جانبًا وننتقل الآن إلى المقدمة الأكثر جرأةً بكثير في «مناورة ٧٤٧ القصوى» التابعة لدوكينز والتي تُفيدُ عدم وجود حججٍ معقولة على وجود الله باستثناء الحجّة المبنيّة على التعقيد المنظّم. لاحِظ أنّه حتّى لو سلّمنا أنّ الله ليس تفسيرًا جيدًا للتصميم الظاهري في عالمنا، فمن الواضح أنّ حجّة دوكينز لن تصل إلى نتيجتها إذا وُجِدت حججٌ جيدة على وجود الله لا تعتمدُ على ظهور التصميم. وعليه، قبل أن يُقدّم دوكينز حجته الإيجابية لعدم وجود الله فإنّه يتخلّى

1. Dawkins, Unweaving the Rainbow: Science, Delusion and the Appetite for Wonder, 41.

2. naturalism

عن «مسؤوليته في التخلّص من الحجج الإيجابية على الاعتقاد [الإيماني] التي قُدّمت خلال التاريخ»[1]. نظرًا إلى التاريخ الطويل لهذه الحجج في الغرب -والتي تعودُ على الأقلّ إلى دفاع زينوفون عن سقراط[2]- فمن المفاجئ أن يُعتبر أنّ هذه الوظيفة تتمّ في ٣٣ صفحة فحسب[3].

فلندقِّق النظر في واحدةٍ فقط من الاحتجاجات القديمة التي ينتقدها دوكينز. يكتبُ دوكينز ما يلي:

«الدليل الكوزمولوجي. لا بدّ أنّه كان هناك وقت لم توجد فيه الأشياء المادية. ولكن بما أنّ الأشياء المادية موجودة الآن، لا بدّ أنّ شيئًا غير ماديٍ قد أخرجها إلى الوجود، ونُسمّي ذلك الشيء الله»[4].

يرفضُ دوكينز هذه الحجّة لأنّها تُقيم «الافتراض غير المسوَّغ تمامًا بأنّ الله نفسه مُحصّن عن التسلسل»[5]. لهذا السبب، يعتبرُ دوكينز أنّ افتراض وجود الله هو أمرٌ عقيم، وأنّه من الأفضل أن نتخيل على سبيل المثال «تفرد الانفجار العظيم»[6]، أو أي مفهوم فيزيائي آخر غير معروف حتى الآن»[7]. بالتالي، «ليس واضحًا بأيّ نحوٍ أنّ الله يُعدُّ المنهي الطبيعي لتسلسلات أكويناس»[8].

للمطّلعين على مؤلّفات القدّيس ثوماس الأكويني، يتّضحُ فورًا أنّ الدليل الكوزمولوجي لأكويناس (طريقته الثالثة) لا يتمحورُ حول الخَلق الزمنيّ

1. Dawkins, The God Delusion, 73.
2. Sedley, Creationism and Its Critics in Antiquity.
3. Dawkins, The God Delusion, 77-109.
4. Ibid, 77.
5. Ibid.
6. big bang singularity
7. Ibid, 78.
8. Ibid.

للأشـياء المادية من قِبل شيءٍ غير مادي. يعتقدُ أكويناس بشـكلٍ شـهير أنّ الله ضروريٌ لتفسـير العالَم حتّى لو لم تُوجد بدايةٌ زمنية للكَون المادي[١]. في الواقع، تعتمدُ حجّة أكويناس على الطبيعة الممكنـة[٢] للحقيقة المادّية[٣]. يقصدُ أكويناس بالممكن أنّ هذا الشيء قد يكون أو لا يكون، وليس من الضروري أن يوجد. بما أنّ الأشياء المادّية قد توجد أو لا توجد، يعتقدُ أكويناس أنّه يجب أن يكون هناك سـبب لوجودها. حتّـى لو وُجدت منذ الأزل، ينبغـي أن تعتمد على شيءٍ آخر لوجودها. لا يكمنُ الحلّ فقـط في أن نقول إنّ هذا الشيء الممكن Y يعتمدُ على شيءٍ آخر X إذا كان Xأيضًا مُمكنًا؛ فالسلسـلة الممكنة نفسها لا تُفسَّر بذلك. قد يقولُ أحدهم إنّ سبب ثبات العالم هو وقوفه على ظهر سُلحفاة ومن ثمّ سلحفاة أخرى وهكذا إلى اللانهاية. لا تُشـكِّلُ المزيد من السـلاحف، مهما بلغ عددها، حلًا مُناسبًا للمشكلة. يحتجُّ أكويناس أنّ الحلّ يقتضي شيئًا ليس جزءًا من الكَومة الممكنة نفسها. وعليه، يجب أن يكون هناك أساسٌ غير ممكن (واجب، مُستقل) للكَومة الممكنة. بتعبيرٍ آخر، يجب أن يملك شيءٌ الوجود بفضل طبيعته الواجبة، ولا يُمكن أن يكون وجودًا مُستعارًا وصولًا إلى الأسفل.

وعليـه، يجب أن يكون واضحًا الآن لماذا يكونُ التفرُّد الذي يقترحه دوكينز (أو أي رواية فيزيائية أخرى) حلًا غير كافٍ للمشـكلة التي يطرحها أكويناس: التفرُّد، ككلّ كيانٍ مادي آخر، يُمكن أن لا يوجد قط، وهو تمامًا كأيّ شيءٍ مُمكن آخر[٤]. أمّا الله، فهو يُمثِّلُ المُنهي الطبيعي للتسلسـل إذا تصوّرنا أنّ الله هو أعظم

١. راجع كتاب: حول أبدية العالم (De Aeternitate Mundi).

2. contingent

3. Wippel, The Metaphysical Thought of Thomas Aquinas, 462-469.

٤. يتذمّر دوكينز بشـكلٍ إضافي في ص٧٧ من كتابه الصادر في العام ٢٠٠٦ أنّه حتّى لو تمّ الإقرار بحجّة

كائن ممكــن، وذلك لأنّ أعظم كائن ممكن هو قائم بذاتــه[1] ويملكُ وجودًا غير مُقيَّد في ذاته، وبالتالي لا يحتاجُ إلى أيّ سببٍ خارجيٍ أو تفسير.

لكي نكون واضحين، أنــا لا أصرُّ أنّ حجّة أكويناس تنجح في النهاية. لقد كانت مزايا هذه الحجّة موضوعًا لحوارٍ استمرَّ لـ٨٠٠ عامًا. ثمّة كثيرٌ من الفروق الدقيقة مما يحول دون تغطيتها هنا، ولكن يجب أن أذكر أنّه حتّى لو وُجِد أنّ حجّة أكويناس المحدَّدة تملكُ بعض المقدمات الإشكالية[2]، فإنّ البداهة الأساسية وراءَ هذه الحجّة (استحالة أن يكون كلُّ شيءٍ مُمكنًا) قد تم تقديمها في حججٍ صارمة أخــرى أنتجها لايبنتس في العصر الحديث[3] بالإضافــة إلى عددٍ من المفكّرين في يومنا الحالي[4]. يبدو أنّ إشــكالية السبب وراء وجود الأشياء الممكنة تُنادي طلبًا لحلٍّ يشبه الإله. حُكمي الخاص هنا هو أنّ دوكينز لم يقترب بأيٍّ نحوٍ من الأنحاء

أكويناس، فليس هنالك سبب لكي نمنح مُنهي التسلسل خصائصَ الله الأخرى كالقدرة الكليّة. ولكنّ القرّاء المطلّعين على فكر أكويناس سوف يُلاحظون أنّ هذا النقد يُخطئ الهدف. تُتبّع الطرق الخمسة، في كلٍّ من كتابيّ "Summa Theologica"و"Summa Contra Gentiles "، من قِبل الاحتجاجات التي تُفيدُ أنّ الكائن الذي يتمّ إثباته ينبغي أن يملكَ حشدًا من الصفات الإلهية (الأبدية، الخير، الذكاء، وما إلى ذلك) تقتضيها خصائصه الأكثر أساسيةً كذاتية الوجود.

1. self-subsistent

٢. للاطّلاع على نقاشٍ مفيد حول «الطريقة الثالثة» والصعوبات التي تُواجهها، راجع: Pawl, "The Five Ways",121-122.

للاطّلاع على مقدّمة ابتدائية حول «الطرق الثلاثة»، راجع ص١١٤-١٣٠ من الكتاب التالي:
Copleston, Aquinas.

وللاطّلاع على مُعالجة أدق، راجع:
Wippel, The Metaphysical Thought of Thomas Aquinas, 442-500.

3. Pruss, "The Leibnizian Cosmological Argument".

4. Gale, and Pruss. 1999. "A New Cosmological Argument"; Swinburne, The Existence of God; Rasmussen, "A New Argument for a Necessary Being"; Rasmussen, and Weaver, "Why Is There Anything?"; Pruss, and Rasmussen, Necessary Existence.

مــن إثبات عدم صحّة أيِّ نموذجٍ من الدليــل الكوزمولوجي فضلًا عن إثبات عدم وجود أيّ احتجاجاتٍ جيّدة أخرى على وجود الله.

بغضِّ النظر عن ذلك، ســوف أسعى فيما يلي إلى أن أُظهِر أنّه حتّى لو سلّمنا لدوكينــز بجميع المقدمات التي لاحظناها لغايــة الآن، تبقى حجّته غير ناجحة لأنّها تعتمدُ على مبدأ فلسفيٍ مشبوه حول طبيعة التفسير.

٢- ٤) فحصُ المقدمة (٤)

لكي نفهمَ محورَ حجّة دوكينز، يجب أن نفهم تبريره للمقدمة (٤). فلنستذكر تلك المقدمة.

(٤) الله ليس تفسيرًا جيدًا للتعقيد المنظّم الموجود في العالم[١].

ينصبُّ أغلب تركيــز دوكينز على الدفاع عن هذه المقدمة. إذا كانت المقدمة (٤) صحيحــةً، وإذا ســلّمنا بالمقدمتين (٢) و(٣)، ســوف يبــدو إذًا أنّ وجود الله مُســتبعد فعــلًا[٢]. وعليه، كيف يدعــمُ دوكينز المقدمة (٤)؟ يبــدو أنّه يُطبّق الاستدلال العقلي كما يلي:

(٦) التفســيرات الجيّدة يجب أن تكون أبســط من الظواهــر التي تزعمُ أنّها تُفسِّرها[٣].

(٧) الله، إذا كان موجودًا، ليس أبسط من التعقيد المنظّم في العالم[٤].

(٤) وعليه، فالله ليس تفسيرًا جيدًا للتعقيد المنظّم الموجود في العالم.

---

١. تسامحًا، اخترتُ تقوية حجّة دوكينز من خلال تفسيرها بشكلٍ أكثر تواضعًا ممّا قد يقصد.

٢. ولكن كحجّة بايزية احتمالية، فإنّ الإيمان يبقى مُحتملًا للغاية إذا كان التفسير الطبيعي حتّى أسوء.

٣. أو ربما: إذ كان X أكثر تعقيدًا (أي أقل بساطة) من Y، فإنّ X ليس تفسيرًا جيدًا لـY.

٤. هذه بوضوح هي المقدمة المركزية لحجّة «مناورة ٧٤٧ القصوى». راجع:

Dawkins, The God Delusion, 120, 147-150, 154-157.

تستندُ حجّة دوكينز إلى مبدأ البساطة غير المفحوصة ظاهريًا الذي لاحظناه في المقدمة (٦). من الحاسم أن نُدرك الطبيعة الفلسفية لهذا المبدأ، فهو يقف أو يسقط بناءً على التقاطه لحقيقةٍ ضرورية حول طبيعة التفسير وليس على أيّ واقعٍ تجريبي. نظرًا إلى شُهرة دوكينز، قد يبدو للوهلة الأولى أنّ حجّته تملكُ جميعَ زخارف العلم الطبيعي وجاه التحقيق التجريبي المتقدِّم. ولكن تكمنُ في قلب مناورة دوكينز حجّةٌ فلسفية تعتمدُ على مبدأ سابق على التجربة حول طبيعة التفسير. وعليه، سوف يتمحورُ ما تبقّى من نقاشنا حول المقدمتين (٦) و(٧). سوف أنطلقُ كي أُظهِر أنّ المقدمتين باطلتان.

٣. البساطة

٣- ١) البساطة النحوية[1]

كثيرًا ما يُنظَر إلى البساطة في العلم الطبيعي وفلسفة العلم الطبيعي على أنّها ميزة للنظرية، ولكن عادةً ما يُنظَر إليها على أنّها واحدةٍ من كثيرٍ من المزايا. على سبيل المثال، يُعدِّد فيلسوف العلم الطبيعي المتصدِّر ثوماس كون بشكلٍ شهير عددًا من المزايا التفسيرية، من بينها الدقّة والثبات واتّساع النطاق والإثمار والبساطة[2]. يبدو أنّ دوكينز يرى أنّ البساطة هي الميزة النظرية المهيمنة –ميزة مفحِمة للغاية بحيث إنّ التفسير لا يُمكن أن يكون تفسيرًا جيدًا إذا افتقدَ للبساطة (أو لدرجةٍ كافيةٍ من البساطة). ولكن عادةً لا تنشأ اعتبارات البساطة إلا إذا اعتُبر أنّ التفسير يملكُ مزايا أخرى كالتلاؤم مع الحقائق المعروفة. البساطة هي

1. syntactic

2. Kuhn, The Essential Tension: Selected Studies in Scientific Tradition and Change, 321-322.

ميزة ثانوية، وليست ورقةً رابحة تلقائية. لا ينبغي التغاضي بشكلٍ تلقائي عن النظريات الأكثر تعقيدًا. أحيانًا، الحقيقة مُعقّدة.

ثمّة فهمان رئيسيان للبساطة في المؤلّفات الفلسفية، وليس من الواضح على الإطلاق أيّهما يقصدُ دوكينز. وعليه، سوف أُعالجُ بشكلٍ منهجيٍ الخيارين الرئيسيَّين. يُعرَف النوع الأول من البساطة بـ«البساطة النحوية»: أي بساطة النظرية التي يفترض أنّها تُفسِّر ظاهرةً ما، أي إنّها «تقيسُ عدد المبادئ الأساسية للنظرية وإيجازها»[1].

ما الرأي الذي نُكوّنه إذًا عن المقدمة (٧) إذا فهمنا المقدمة (٦) كمبدأ للبساطة النحوية؟ هل فرضية الإله أكثر تعقيدًا نحويًا من الظاهرة التي يُفترض أن تُفسِّرها فرضية الإله؟ كثيرًا ما يُعتقد أنّ الله يُفسّر أصل الحياة، والتعقيدات في الحياة داخل الخليّة، والضبط الدقيق في الثوابت الفيزيائية، وأصل الكَون نفسه، وأكثر من ذلك. في الواقع، يُفسِّرُ الله جوهريًا في الإيمان الكلاسيكي بالإله كلَّ شيءٍ باستثناء ذاته. تذكّر الآن أنّ صياغة دوكينز لفرضية الإله هي بسيطةٌ للغاية بحيث يُمكن التعبير عنها في جُملةٍ واحدة، وبعض أجزائها زائدة عن اللزوم: «يوجدُ ذكاءٌ فوق البشر خارق للطبيعة قد صمّمَ الكون وكلَّ شيءٍ فيه وخلقه عن قصد، بما فيه نحن»[2]. دوكينز ليس الوحيد الذي يعتقدُ أنّه يُمكن التعبير عن فرضية الإله بشكلٍ موجز. على سبيل المثال، يرى التراث الأنسيلمي أنّ الله هو «أعظم كائن قابل للتصوُّر» أو «الكائن الكامل بالحدّ الأقصى»[3]. بما أنّه يُمكن

1. Baker, “Simplicity”, 1.

كثيرًا ما يُسمّى النموذج الرياضياتي من البساطة النحوية بالـ«أناقة» (elegance).

2. Dawkins, The God Delusion, 31.

٣. بشكلٍ أكثر تقني، يُعتقد أنّ الله يملكُ جميعَ الكمالات الإيجابية المتواجدة معًا.

التعبير عن الافتراض الإيماني بشكلٍ بسيطٍ جدًا، فإذا فهِمْنا البساطة في الفرضية (٦) على أنّها بساطة نحوية، يبدو الإيمان كتفسيرٍ بسيطٍ للغاية فعلًا ممّا يجعل المقدمة (٧) التابعة لدوكينز باطلة.

ولكن لكي نكون مُتسامحين، فلنفترض أنّ دوكينز لا يقصد البساطة النحوية. يبدو دوكينز مُهتمًا بشكلٍ أقلّ بتعقيد فرضية الإله أو ببساطتها من اهتمامه بتعقيد الله أو بساطته.

٣- ٢) البساطة الأنطولوجية

كثيرًا ما يُسمّى النوع الرئيسي الثاني من البساطة بـ«البساطة الأنطولوجية» أو «التقتير»[1]. البساطة الأنطولوجية هي «على وجه التقريب، عدد الأشياء المفترَضَة وتعقيدها»[2]. عادةً ما يهدفُ «نَصلُ أوكام[3]» -الرأي الذي يُفيدُ أنّه لا ينبغي أن نُضاعف الكيانات أكثر ممّا هو لازم- إلى التقاط هذا المفهوم. مُجددًا، ينبغي مُوازنة البساطة مقابل المزايا الأخرى كالقوّة التفسيرية والتلاؤم مع المعلومات الأخرى[4]. قد يكونُ التفسير الذي يفترضُ المزيد من الكيانات مُفضّلًا على المنافسين الأبسط إذا امتلكَ توافقًا أكبر مع المعلومات الأخرى المعروفة[5]. حينما يتمّ التعبير عنها بدقّة، تحوي مبادئ التقتير بنود ثبات باقي العوامل[6]

1. parsimony
2. Baker, "Simplicity", 4.
3. Occam's Razor
٤. قد يُمكن اختزال التلاؤم مع نظرياتٍ أخرى في البساطة أو القوّة التفسيرية، وهذه هي المقاربة التي يتبنّاها سوينبورن. أما آخرون فإنّهم يؤكّدون على تعدُّدية المزايا. انظر:
Thagard, "The Best Explanation: Criteria for Theory Choice"; Harman, "Inference to the Best Explanation"; Lipton, Inference to the Best Explanation.
5. Thagard, "The Best Explanation: Criteria for Theory Choice", 87-89.
6. ceteris paribus clauses

للدلالــة على أنّه يصحّ اللجوء إليها فقط حينما تكونُ الأشــياء الأخرى (كالقوّة التفســيرية) مُســاوية. إذا كان الله يملكُ القوّة الســببية ليفسّر أصلَ الكَون بينما نظرية تعدُّد الأكوان التابِعة لدوكينز لا تملك هذه القوّة (بناء على أيّ آليةٍ لإنتاج الكَون يتبنّاها)، فمن غير الواضح أن تكون الأشياء الأخرى مُساوية؛ لن تدخل البساطة الأنطولوجية إلى اللعبة كعاملٍ كاسرٍ للتعادُل.

يجب أن نُفرّق في البســاطة الأنطولوجية بين ما يُســمّى تقتــيرًا كميًا وتقتيرًا نوعيًــا. يعتبر التقتير الكمي أنّ الإلتزام بوجود أشــياء فردية أقل يُعدّ ميزة، بينما التقتــير النوعي يعتــبرُ أنّ الإلتزام بوجود أصنــافٍ أقلّ من الأشــياء هو ميزة. فلنتطرّق إلى التقتير الكمّي أولًا.

٣- ٣) التقتير الكميّ

لم يكــن يُعتبر التقتير الكميّ دائمًا ميزةً تفســيرية. مثلًا، يرفضُ الفيلســوف المرموق ديفيد لويس[1] هذا القيد الموضوع على التفسير[2]. هل الفرضية التي تُفيدُ أنّ عقلًا بشريًا مُحددًا يحوي العدد X من خلايا الدماغ تتفوّقُ تلقائيًا بالفعل على الفرضيــة التي تُفيدُ أنّه يحوي العدد x+1 من الخلايا؟ يرى لويس وغيره أنّ هذه الاعتبارات الســابقة على التجربة ليس لها مكان في العالم التجريبي. ولكن لعلّ هذا الفهم لميزة البساطة قد دار في ذهن دوكينز في المقدمتين (٦) و(٧).

لاحِظ أنّ البســاطة هــي مفهوم مقارَن في المقدمتــين (٦) و(٧). إن افتراض وجود الله لتفسير ســمة واحدة معقدة من سمات الحياة على الأرض شيء، ولكن حتى دوكينز يشير إلى العديد من السمات التي يمكن تفسيرها من خلال التصميم

1. David Lewis

2. Lewis, Counterfactuals, 87.

الإلهـي (أصل الحيـاة، والوعي، وقوانـين الفيزياء، وما إلى ذلـك). ولكن حتّى دوكينز يُلاحظُ أنّ عددًا من هذه الخصائص يُفسَّر بالقوة من خلال التصميم الإلهي (كأصل الحياة، الوعي، قوانين الفيزياء، وما إلى ذلك). إذا كان التقتير الكميّ هو ما يدورُ في ذهن دوكينز، فإنّ الله يُشـكِّلُ إذًا تفسـيرًا تقتيريًا على وجه الخصوص لجميع هذه الخصائص مجتمِعةً. حتّى ولو كنّا نُحاول فقط تفسـيرَ الخصائص التي تبدو مُصمَّمـة في العالَم والتي يذكرها دوكينز، فإنّ عـدد الكيانات التي تقتضيها هذه الخصائص يفوقُ بشكلٍ كبير إلهًا واحدًا. فقط تأمّل في هذا التعريف لفرضية الإلـه الذي يقول إنّ هناك كيانًا واحـدًا يُفسِّرُ «الكون وكلّ شيء فيه»[1]. في مقابل المقدمة (٧)، قد يكون الله تفسـيرًا جيدًا وفق هـذا المعيار. فضلًا على ذلك، قارن فرضية الإله مع افتراض دوكينز لوجود تفسيراتٍ ممكنة منفصلة لجميع الخصائص المصمَّمة المتنوّعة في الحياة والكون. تأمّل في فرضيته حول الأكوان المتعدِّدة –وهي نفخٌ هائل في الإلتزامات الأنطولوجية[2]– لتفسـير الخصائص المصمَّمة ظاهريًا في الكون الوحيد المعروف. بتعبيرٍ آخر، إذا كانت المقدمة (٦) مبدأً من التقتير الكميّ، فإنّ الكون المتعدِّد التابع لدوكينز –وليس الله– هو غير التقتيري.

يُتاحُ لدوكينز أن يعترضَ بأنّني أقوم بإحصاء التعقيد الكميّ للكيانات بشكلٍ غير صحيح. على سـبيل المثال، يعترضُ دوكينز على ادّعاء زميله في أكسـفورد، ريتشـارد سـوينبورن، أنّ الله بسـيط لأنّه جوهرٌ وحيد[3]. طوّر دوكينز في كتاب «صانع الساعات الأعمى» رأيه حول التعقيد بشكلٍ أتم، مُحتجًا أنّ الشيء المعقّد

1. Dawkins, The God Delusion, 31.

٢. ثمّة طريقتان للتفكير بفرضية الأكوان المتعدّدة: إمّا أنّها تزيد عدد الأكوان أو تزيد تعقيدَ الكون الواحد الهائل. في الطريقتين، النظرة ليست تقتيرية من الناحية الكمية أبدًا.

3. Dawkins, The God Delusion, 148.

(١) «يملـكُ العديدَ من الأجزاء»، و(٢) هذه «الأجزاء المكوِّنة مُرتبّة بطريقةٍ لا يُحتمل أنّها قد نشـأت بالصدفة وحدها»، و(٣) تُحقِّق الأجزاء المجتمِعة غايةً ما. وعليـه، قد يحتجّ دوكينز أنّ الله ما زال يبدو مُعقّدًا كميًا (أكثر من الأشـياء التي قد يُفسِّرهـا الله) حيث إنّ الله يملكُ العديد من الأجزاء[١]. ولكن بالمعنى الفعليّ الأشدّ والأوضح، فإنّ الله لا يملكُ أيَّ أجزاءٍ مُطلقًا لأنّ الله جوهر غير مادي.

يبدو أنّ دوكينز يُسـلِّم في كتابه «وهم الإلـه» أنّ الله لا يملكُ أجزاء فعلية، ولكنّه يؤكّد أنّ الله مُعقَّد[٢]. يقتبسُ دوكينز رأيَ كيث وارد[٣] «أنّه من المتّسق تمامًا... افـتراض أنّ الله، ولو كان غير قابلٍ للتجزأة، هو مُعقَّد داخليًا» مُستحسـنًا إيّاه، ورأي جوليان هاكسلي[٤] الذي «قام بتعريف التعقيد على ضوء «تباين الأجزاء»، وما يقصده من ذلك هو نوع مُحدّد من عدم قابلية التجزأة الوظيفية»[٥]. قد يعتقدُ دوكينز أنّه رغـم أنّ الله لا يتألّف من أجزاء فعليًا، إلا أنّه ينبغي أن يكون مُعقّدًا نفسـيًا بمعنىً ما[٦]. يحتجّ دوكينز أنّ نشـاط الله (سواء نشاطه الذهني وفي العالَم) يسـتلزمُ تعقيـدَه: «الله، أو أي فاعل ذكيٍ ومُتّخذٍ للقـرارات ومُقدِّر، ينبغي أن يكـون مُسـتبعَدًا للغاية بالمعنى الإحصائي نفسـه كالكيانات التـي يُفترض أنّه يُفسِّرها»[٧]. إضافة إلى ذلك:

---

1. Ibid, 11-16.

٢. حينما يدّعي دوكينز أنّ الله أشـدّ تعقيدًا من الشيء الذي يتمّ اللجوء إلى الله لكي يُفسّره، فإنّه لا يُعارض عقيدة «البساطة الإلهية». لا يُظهر دوكينز إدراكًا للفرق (أو عدم الفرق) في جوهر الله ووجوده.

3. Keith Ward

4. Julian Huxley

5. Dawkins, The God Delusion, 150.

6.See:Mackie, The Miracle of Theism, 144; McGinn, The Mysterious Flame: Conscious Minds in a Material World, 86-87.

7. Dawkins, The God Delusion, 147.

«الإله القادر بشكلٍ مستمرٍ على رصد الحالة الفردية لكلّ جُزيئة في الكون والتحكُّم بها لا يُمكن أن يكون بسيطًا. يحتاجُ وجوده إلى تفسيرٍ عملاق بحدّ ذاته. الأسوء (من وجهة نظر البساطة) هو أنّ زوايا أخرى من الوعي الضخم لله تنشغلُ في الوقت نفسه بأفعال كلّ إنسان ومشاعره وصلواته -بالإضافة إلى أيّ كائناتٍ فضائية ذكية قد تكون موجودة على الكواكب الأخرى في هذه المجرّة والـ١٠٠ مليار مجرة الأخرى»[1].

أو مرةً أخرى:

«الإله القادر على إرسال إشاراتٍ مفهومة للملايين من البشر في الوقت نفسه، وتلقّي الرسائل من جميعهم في الوقت نفسه، لا يُمكن أن يكون -مهما كانت [صفاته] الأخرى، بسيطًا. يا لهذا النطاق الواسع! قد لا يملك الله دماغًا مؤلفًا من الخلايا العصبية أو وحدة معالجة مركزية[2] مصنوعة من السيليكون، ولكن إذا كان يملكُ القوى المنسوبة إليه فيجب أن يملكَ شيئًا مُركّبًا بشكلٍ تفصيلي وغير عشوائي أكثر بكثير من أكبر دماغ أو أكبر حاسوب نعرفه»[3].

بغضِّ النظر عن أسلوب دوكينز في الكتابة المثير للإعجاب، ما زال غير واضحٍ بشكلٍ دقيق لماذا يستلزم نشاطُ الله تعقيدَه. ربما يظنّ دوكينز أنّ طريقة الله في المعرفة -على سبيل المثال، طريقته في معرفة «مشاعر كلّ إنسان وصلواته»- تجعله مُعقدًا حيث يؤدّي الله عملية معقّدة من مُعالجة المعلومات والاستدلال العقلي. ولكن لطالما اعتقدَ أعظم الفلاسفة وعلماء اللاهوت أنّ الله لا يستدلّ بطريقة تحليلية كما نفعلُ نحن بل يستدلّ بنحوٍ بسيط. يعتقدُ أكويناس، مُقتفيًا أثر

1. Ibid, 149.
2. CPU
3. Ibid, 154.

أوغسطين، أنّ الله يعلمُ كلَّ شيءٍ يُمكن أن يُعرَف في فعلٍ واحدٍ لازمني ويمتلكُ فكرًا واحدًا هائلًا[١]. إذا وظّفنا هذا الفهم التقليدي لله، فإنّ الله بعيدٌ عن التعقيد. إنّه أبسط كيان ممكن.

كــردٍّ، يُمكن أن يدّعي الفرد أنّ العقــول تملك بالضرورة «مكوّنات» ذهنية مُحدّدة، ورغم أنّ هذه المكوّنات ليســت أجزاء فعلية إلا أنّها تجعلُ العقل مُعقدًا. لعلّ العقول هي تلك الأشــياء التي تمتلكُ بالــضرورة بُنيةً ثالوثية أفلاطونية أو فرويدية. مع ذلك، وبنــاءً على أيّ نموذجٍ نفسي تقريبًا -حتّى تلك النماذج التي تمتلــكُ بنىً ثانوية أكثر بكثير- ما زال بعيدًا كلَّ البُعد عن الوضوح أن يكون الله أكثر تعقيدًا من الشيء الذي يُفــسّره -أي مُطلقًا كلّ شيء موجود في الكون، بما فيه مليــارات المجرّات والنجوم والذرّات والجزيئــات دون الذريّة. فضلًا على ذلك، اعتقد الفلاسفة البارزون أنّ الخصائص الإلهية تُختزل في خاصيةٍ واحدة أو بضع خصائص. كما يحتجّ سوينبورن، بما أنّ خصائص الله الجوهرية تتدفّق جميعًا من امتلاكه لـ«القوّة النقية وغير المحدودة والقصدية»، فهو «أبســط صنفٍ من الأشخاص يُمكن أن يوجد»[٢]. يذهبُ الإيمان الكلاسيكي بالإله (تراث موسى بن ميمون وابن ســينا وأكويناس) أبعد من ذلك إذ يؤكّدُ أنّ الله بســيطٌ بشــكلٍ جذريٍ للغاية بحيث لا يفتقدُ فقط للأجزاء المادية بل للأجزاء الميتافيزيقية أيضًا.

في النهايــة، حتّى لو أحصينــا «أجزاء» الله بهذه الطريقــة المتكلّفة، وحتّى لو

١. راجع Summa Theologica Ia.٧, ١٤ والكتاب التالي:

Zagzebski, The Dilemma of Freedom and Foreknowledge.

٢. يحتجُ ســوينبورن ببعض التفصيل على أنّ نســب القوة اللانهائية هو أبسط من نسب أيّ كميةٍ محدودة، ويُبيّن هذا الأمر من خلال تاريخ العلم الطبيعي. انظر:

Swinburne, The Christian God, 154; Simplicity as Evidence of Truth; and The Existence of God, 55.

سـلّمنا لصالح الاحتجاج بأنّ الله هو أكثر تعقيدًا بهـذا المعنى الكميّ، وحتّى لو كانـت خصائص الله مُسـتقلّة منطقيًا عـن بعضها البعض، يبقى سـؤالٌ واحد: هل هـو صحيح -كما تدّعي المقدمـة (٦)- أنّ الكيان الذي يكـونُ أكثر تعقيدًا مـن الناحيـة الكمية من الـشيء الذي يمكـن أن يُفسِّره هذا الكيان هو تفسـير سيء تلقائيًـا؟ تأمّل بالتالي: يقومُ العلماء دوريًا بافـتراض كياناتٍ جديدة مُعقّدة حينما تُسـوِّغُ المعطيات ذلك. مثلًا: افتراضُ شيءٍ فريدٍ ومُعقّد كثيرًا نسـبيًا وغير مشـاهَد إلى الآن مثل كوكب نبتون لتفسير بعض الاضطرابات البسيطة في مدار أورانوس. يملكُ نبتون منشـأه الخاص الذي يحتاجُ إلى تفسير، فهو يملكُ مدارًا فريدًا ومُحدّدًا للغاية، وتركيبةً مادية مُتعدِّدة الأوجه، وجوًا، ومناخًا، وأقمارًا، وما إلى ذلـك. لم يقم العلماء فقط باقتراض كياناتٍ أكثر تعقيدًا من تلك التي تُفسِّرها هذه الكيانات، ولكنّهم قاموا بذلك أيضًا بشكلٍ مُتكرِّر كجزءٍ من أفضل صنفٍ من العلم الطبيعي.

٣- ٤) التقتير النوعي

عند هذه النقطة، قد يقترحُ دوكينز أن نُدخِل أمرًا إضافيًا آخر لتمييز التعقيد الأنطولوجي لتفسـيراتنا. كـما ذُكر آنفًا، رفضَ بعضُ الفلاسـفة التقتير الكميّ لصالح التقتير النوعي. قد يعتقدُ دوكينز أنّ فرضية الأكوان المتعدّدة تُعدّ فرضية بسـيطة لأنّ الطريقة الصحيحة لإحصاء الكيانات لا تتمّ عبر الرموز الفردية بل عبر الأنواع الجديدة. يكتبُ دوكينز ما يلي:

« [فرضية] الأكوان المتعدّدة، رغم بذاختها، هي بسـيطة. قد تبدو [فرضية] الأكوان المتعدّدة باذخة من حيث العـدد الهائل من الأكوان. ولكن إذا كان كلُّ واحدٍ من تلك الأكوان بسيطًا في قوانينه الأساسية، فإنّنا ما زلنا لا نفترض شيئًا

مُستبعدًا للغاية»[1].

مع أنّ فرضيــة الأكوان المتعدِّدة تفترضُ المزيد مــن الكيانات الرمزية، فإنّ كلّ رمزٍ هو من النوع نفســه جوهريًا ككوننا (والــذي يعتبره دوكينز بطريقةٍ ما بســيطًا). وعليه، فإنّ أنطولوجيتنا ليســت أكبر ممّا كانــت عليه قبل أن نفترض الأكوان المتعدِّدة، أو على الأقلّ، هذا ليس نوع الزيادة الذي يؤدّي بشكلٍ تلقائي إلى تفسيرٍ سيء.

انتقد الفلاســفة الادّعاء بأنّ إدخال الأصناف الجديدة فقط هو ما يمكن أن يضخــم الأنطولوجيا[2]. حتّــى لو وُجِد نوع من «الخصم» عــلى الرموز الجديدة للأنواع القديمة، فإنّه ليس شــيكًا على بياض: نوع جديد واحد يمكن تعويضه بأكثر من ذلك بكثير بواسطة عدد لا نهائي من الرموز الجديدة للأنواع القديمة. إضافــة إلى ذلك، خُذ بعين الاعتبــار أنّ الإحصاء بناء على الأصناف هو صعب للغاية. هل الأجناس الجديدة من النباتات والحيوانات أو الجزئيات الأساســية المختلفة أنواعًا جديدة؟ إذا كان هذا هو الحال، يُحتمل أنّ الأكوان المختلفة سوف تمتلــكُ العديد من الأنواع الطبيعيــة الجديدة بالفعل، وســوف تتخطّى فرضية الأكــوان المتعدِّدة التــي يتبنّاها دوكينز بشــكلٍ بعيدٍ الإلتزامــات الأنطولوجية للمؤمن العــادي. ولكن إذا لم تُعدّ هذه الأنواع جديدة، فلمَ لا؟ ما هي الطريقة المبنيّة على القواعد التي تُتّبع لاتّخاذ القرار حول ما يُعدّ نوعًا جديدًا، نظرًا إلى أنّ كلّ شيء يُشبه شيئًا آخر بنحوٍ ما؟

يعتقدُ دوكينز أن افتراضَ العديد من الأكوان الجديدة لا يجعلُ فرضية الأكوان المتعدِّدة مُعقّدة بنحوٍ غير مقبول، وذلك لأنّ هذه الأكوان الجديدة الكثيرة جميعها من النوع العام نفســه لكوننا. ولكن بناءً على هذا المعيار، حتّى لو فسّرنا المقدمة

1. Dawkins, The God Delusion, 147.

2. Nolan, “Quantitative Parsimony”; Huemer, “When Is Parsimony a Virtue?”, 216.

(٦) كفرضيـةٍ من التقتـير الكميّ، ليس هناك ضمانة أن يكـون الله نوعًا جديدًا وبالتالي أن تكون المقدمة (٧) صحيحـة. إذا كان الذهنُ جزءًا حقيقيًا من عالمنا -والقليـل فقط من يُنكر ذلك- فإنّ العبء سـوف يقعُ على دوكينز لكي يُفسِّر لماذا يكونُ الله (الذي يتصوّره دوكينز ذِهنًا أو ذكاء) نوعًا جديدًا جوهريًا؟ حتّى إنّ دوكينز يصف الله بأنّه «الإنسـان الخارق» -أي مثل الإنسـان ولكنّه أقوى. حتّى الفاعل الذكيّ العظيم والقوي بنحوٍ غير قابلٍ للتخيُّل يبدو مع ذلك فاعلًا ذكيًا. في الواقـع، لطالما اعتقدت التقاليد التوحيدية العظيمة أنّ البشر قد خُلقوا ككائنـاتٍ واعية ومتعقّلة في صورة كائنٍ واعٍ ومُتعقّل. وعليه، يصعبُ أن نفهم لماذا يكون الله بالضرورة نوعًا جديدًا[١]. [٢]

ولكن لصالح الاحتجاج، فلنفصِّل الأنواع بشكلٍ دقيق ونَقُل إن الله يختلفُ من حيـث النوع عن الفاعلين الأذكياء الذين نعرفهم. مع ذلك، قد نتفكّر فيما إذا كان صحيحـا أنّ العلـم الطبيعي لا يفـترضُ قطّ أنواعًـا جديدة جوهريًا -ليـس فقط كواكب جديـدة مثل نبتون (لأنّنا نعلم بوجـود الكواكب)- بل أنواعًا جديدة تمامًا. في الواقع، يفعلُ العلماء هذا بشكلٍ دوريٍ ومن دون تذمُّر.

---

١. بالطبع، اعتقد أكويناس وآخرون أنّ الله ليس من جنس أيٍّ من الأشـياء الأخرى، بما فيها الأشـخاص أو الفاعلين العقلائيين. ولكن هذا المسـار غير متاح لدوكينز لأنّه ما يفتأ يُصرّ أنّ الله، إن كان موجودًا، هو فاعل عقلائي يؤدّي أفكارًا وعمليات مُعقّدة مثلنا تمامًا.

٢. يبـدو أنّ ماكـي في ص١٠٠ من كتابـه The Miracle of Theism يظـنّ أنّ العقل غير المادي مثل الله يكون نوعًا من الأشخاص هو جديد بشكلٍ جذري. ولكنّ هذا يفترض الفيزيائية، وقد مرّت الفيزيائية بأوقاتٍ صعبة في السنوات الأخيرة. راجع المؤلفات التالية:

Chalmers, The Character of Consciousness; Gillett, and Loewer, Physicalism and Its Discontents; Kim, Physicalism, or Something Near Enough; Koons, and Bealer, The Waning of Materialism. Ney, “Physicalism as an Attitude”.

وعليه، سـوف تكونُ نقطة ضعف خطيرة إذا اقتضت حجّة دوكينز الضخمة بشـكلٍ منطقي الفيزيائية كفرضية، وسوف تؤكّد بشكلٍ إضافي فقط أنّ الحجّة مدفوعة أكثر بكثير فلسفيًا وليس علميًا.

يفترضُ علماءُ الفيزياء وجودَ الأوتار الفائقة والجزئيات الافتراضية والأغشية الخماسية الأبعاد. من الواضح أنّ هذه الفرضيات هي تفسيرية رغم افتراضها لأنواعٍ جديدة (حيث يتمّ فصل الأنواع بشكلٍ دقيق).

قد يُصرّ دوكينز مع ذلك أنّ الله هو نوع مختلف جذريًا عن أيّ شيءٍ آخر نعرفه، وذلك ببساطة لأنّ الله خارق للطبيعة. ولكن أليس هذا بالضبط ما قاله مُنتقدو نيوتن؟ تمّ التنديد بالجاذبية -تلك القوّة العامِلة عن بُعد- باعتبارها «قوة غامضة»[1] غير مُناسِبة في التفسير العلميّ ومُختلفة جدًا من حيث النوع عن الفرضيات العلمية فعلًا. في النهاية، يجب أن نفترض سببًا مُناسبًا لتفسير المعلومات، وحينما تتضمّن المعلومات أصلَ الكون كلّه أو وجود الكائنات الممكنة -أي النظام الطبيعي برمّته- قد يكون نوع مختلف جذريًا من الأسباب هو الوحيد الكافي. أستنتجُ إذًا أنّه، حتّى لو فُهمت مقدمتا دوكينز (٦) و(٧) على أنّهما تُشيران إلى البساطة النوعية، فإنّ هاتين المقدمتين تبقيان باطلتَين.

٣- ٥) البساطة الأساسية

لعلّ أكثر ما يُزعج دوكينز حول الإيمان بالإله هو أنّه يتركُ الأصل النهائي للعالم من دون تفسير[2]. ولكن أيٌّ من النظريات هي فعلًا أبسط فيما يتعلّق بعدد الكيانات الأساسية (غير المفسَّرة) والخصائص المفترَضة؟ وأيٌّ من الرؤى الكونية تبدأ مع أقلّ عددٍ من الكيانات غير المفسَّرة وتنطلِقُ لتفسير كلّ شيءٍ آخر؟

الحقيقة الأساسية الوحيدة في الإيمان بالإله هي -بشكلٍ قابلٍ للاحتجاج- موجودٌ بسيط جذريًا، أو بالحدّ الأعلى وجود شخصٍ يحملُ خاصيتَين -العلم

1. occult force

٢. على أيّ حال، هذا صحيح في رؤية سوينبورن. يؤكّد بلانتينغا أنّ الله هو كائن واجب منطقيًا.

والقوة- بأبسط طريقةٍ مُمكنة[١]. أي إنّ الله يحملُ هاتين الخاصيتين جوهريًا ومن دون حد (وهذا أبسط من افتراض أيّ مقدارٍ محدود من القوّة أو العلم). تُفسَّر جميع الأشياء الممكنة على ضوء رغبة الله في إحداث أشياء جيّدة (أي من خلال التفسير الشخصي، وهو مألوف جدًا لدينا).

يبدو أنّ المذهب الطبيعي يفتقدُ لهذا النوع من لنظامية والبساطة الأساسية. ثمّة عدد كبير من الحقائق الأساسية (على سبيل المثال، الروابط الأساسية بين حالات الوعي وحالات الذهن) في المذهب الطبيعي، ليس أقلّها وجود الأعداد الهائلة من الكائنات الممكنة: الجزئيات الأساسية التي يتألّف منها الكون المادي. إحصاء عدد الحقائق الأساسية في المذهب الطبيعي سوف يكونُ أمرًا صعبًا، ولكن يبدو أنّه يفترضُ بشكلٍ لا مفرّ منه أكثر من كيانٍ واحدٍ أعمى يحملُ خاصيتين فقط وبأبسط طريقة.

أعترفُ طوعًا بوجود معنىً ما حيث يكونُ الإيمان بالله أكثر تعقيدًا من المذهب الطبيعي: المؤمنون لديهم الله في الأنطولوجيا الخاصّة بهم. لهذا السبب فإنّ ادّعاء دوكينز بأنّنا جميعًا مُلحدون فيما يتعلّق بزوس أو ووتان أو وحش المعكرونة الطائر له بعض القوة الشرائية. كما يُعلن دوكينز بشكلٍ مُسلٍ: «إنّني فقط أنطلقُ إلهًا واحدًا إلى الأمام»[٢]. افتراضُ الله كالتفسير النهائي لكوننا يعني

---

١. القوة غير المحدودة تقتضي الحرية الكاملة بشكلٍ معقول. يحتجّ سوينبورن في ص٩٩ والصفحات التي تليها من كتابه The Existence of God أنّ علم الله وقوته وحريته الكاملة جميعًا تقتضي خيره الأخلاقي الكامل وغيره من الصفات الإلهية الجوهرية. راجع مقالته:

Swinburne, “God as the Simplest Explanation of the Universe”.

2. Dawkins, The God Delusion, 53.

لاحِظ أنّ أنصار الإيمان الكلاسيكيين لا يرفضون آلهةً من قبيل زوس ووُتان بشكلٍ تعسفي. هذه الآلهة ليست حتّى تفسيراتٍ ممكنة للحقيقة الممكنة، وذلك لأنّها ممكنة بحدّ ذاتها وتستلزم تفسيرًا لوجودها وتركيبتها. أما الله في الإيمان الكلاسيكي (الذي هو بسيط جذريًا ولا يعتمد على شيءٍ خارج ذاته) فهو ليس كذلك.

الزيادة في عدد الأشـياء التي يعتبرُ أنصار المذهب الطبيعي أنّها موجودة. ولكن أحيانًا، ينبغي أن نقوم جميعُنا بإدخال أشياءَ جديدة إلى أنطولوجيتنا (مثلًا، الثقوب السوداء وما إلى ذلك). السؤال الحقيقي هو: هل إنّ وجود الكيان المفترض يجعلُ كامل الرؤية الكونية للإنسـان أبسـط وأكثر توحُّدًا[1]؟ الإيمان بالإله هو أبسـط لأنّه يحوي كياناتٍ أقلّ غير مُفسَّرة، والحقيقة الأساسية الوحيدة فيه تمنحُ تفسيرًا بسيطًا ومُوحَّدًا لجميع الأشياء الأخرى.

٤. النتيجة

تقـعُ «مُناورة ٧٤٧ القصوى» التي طرحها دوكينـز في ورطةٍ كبيرة. بغضّ النظر عن أيّ فهمٍ للبساطة يتبنّاه دوكينز، فإنّ المقدمتين (٦) و(٧) –اللّتين تدعمان المقدمة (٤)– هما باطلتان. سـواء كانت تُعتبر البساطة نحوية أو أنطولوجية، أو تُعتبر تقتيرًا كميًا أو تقتيرًا نوعيًا، فإنّها من الصعب للغاية أن نزعم أن أيّ تفسيرٍ أكثر تعقيدًا من الشيء الذي يُفسّره [هذا التفسير] بالقوة هو تلقائيًا تفسير سيء، أو أنّ الله هو أكثر تعقيدًا من العالم. إضافة إلى ذلك، لقد قدّمتُ سببًا للإعتقاد بأنّ الإيمان بالإله هو أبسط من المذهب الطبيعي على ضوء عدد الكيانات الأساسية المفترَضَـة. لم يُطلِق دوكينز على هذا فقط «الحجّـة المركزية» في كتابه، بل وصفه بأنّه «سببه الرئيسي لعدم الاعتقاد بوجود الله»[2]. بما أنّ مناورة دوكينز هي الحجة الأكثر تطورًا عند الملحدين الجدد ضدّ وجود الله، فمن المشـكوك فيه إذا كانت هذه الحركة تُقدِّمُ أيَّ سببٍ جديدٍ للاعتقاد بعدم وجود الله[3].

1. Smart, “Laws of Nature and Cosmic Coincidences”, 275-276.

2. Dawkins, The God Delusion, 157, 73.

٣. يودّ المؤلّف أن يتوجّه بالشـكر إلى ترنت دورتي (Trent Dougherty) لتعاونه المسبق، والذي من دونه لم يكن هذا الفصل ممكنًا.

المصادر

1. Baker, Alan., “Simplicity”, Stanford Encyclopedia of Philosophy, edited byEdward N. Zalta. http://plato.stanford.edu/entries/simplicity, 2011.
2. Chalmers, David J., The Character of Consciousness, New York, NY: Oxford University Press, 2010.
3. Collins, Robin., “The Teleological Argument: An Exploration of the Fine-Tuning of the Universe”, In The Blackwell Companion to Natural Theology, edited by William Lane Craig and J.P. Moreland, Malden, MA: Blackwell Publishing Ltd, (2012): 202-281.
4. Copleston, F. C., Aquinas, (Harmondsworth, Middlesex: Penguin, 1955.
5. Dawkins, Richard., The Blind Watchmaker: Why the Evidence of Evolution Reveals a Universe Without Design, New York, NY: W. W. Norton & Company, 1996.
6. ———, Unweaving the Rainbow: Science, Delusion and the Appetite for Wonder, New York, NY: Mariner Books, 2000.
7. ———, The God Delusion, New York, NY: Houghton Mifflin Company, 2006.
8. Dennett, Daniel C., Darwin’s Dangerous Idea: Evolution and the Meanings of Life, New York, NY: Touchstone, 1995.
9. Emerson, Ralph Waldo., The Complete Works of Ralph Waldo Emerson, New York, NY: Houghton, Mifflin and Co, 1903.
10. Gage, Logan Paul, and Blake McAllister. Forthcoming., “The Phenomenal Conservative Approach to Religious Epistemology”, In Debating Christian Religious Epistemology: An Introduction to Five Views on the Knowledge of God, edited by John M. DePoe and Tyler Dalton McNabb, New York, NY: Bloomsbury Academic, 1903.
11. Gale, Richard, and Alexander R. Pruss., “A New Cosmological Argument”, Religious Studies, 35, 4, (1999): 461-476.

12. Gillett, Carl, and Barry Loewer, eds., Physicalism and Its Discontents, New York, NY: Cambridge University Press, 2001.
13. Harman, Gilbert H. "Inference to the Best Explanation", The Philosophical Review 74 (1), (1965): 88-95.
14. Harris, Sam., Letter to a Christian Nation, New York, NY: Alfred A. Knopf, 2006.
15. Hawking, Stephen, A Brief History of Time, New York, NY: Bantam Books, 1996.
16. Hitchens, Christopher, God Is Not Great: How Religion Poisons Everything, New York, NY: Twelve, 2007.
17. Huemer, Michael., "When Is Parsimony a Virtue?", The Philosophical Quarterly, 59, 235, (2009): 216-236.
18. Jastrow, Robert., God and the Astronomers, 2nd ed, Reader's Library, Inc., 1992.
19. Kim, Jaegwon., Physicalism, or Something Near Enough, Princeton: Princeton University Press, 2005.
20. Koons, Robert C., and George Bealer, eds., The Waning of Materialism, New York, NY: Oxford University Press, 2010.
21. Kuhn, Thomas S., The Essential Tension: Selected Studies in Scientific Tradition and Change, Chicago: The University of Chicago Press, 1977.
22. Lewis, David., Counterfactuals, Oxford: Basil Blackwell, 1973.
23. Lipton, Peter., Inference to the Best Explanation, 2nd ed, New York, NY: Routledge, 2004.
24. Mackie, J.L., The Miracle of Theism, New York, NY: Clarendon Press, 1982.
25. McGinn, Colin., The Mysterious Flame: Conscious Minds in a Material World, New York, NY: Basic Books, 1999.
26. Ney, Alyssa, "Physicalism as an Attitude", Philosophical Studies, 138, 1, (2008): 1-15.
27. Nolan, Daniel., "Quantitative Parsimony", British Journal for the Philosophy of Science, 48, 3, (1997): 329-343.

28. Pawl, Timothy., “The Five Ways”, In The Oxford Handbook of Aquinas, edited by Brian Davies and Eleonore Stump, 115-131, New York: Oxford University Press, 2012.
29. Plantinga, Alvin., Where the Conflict Really Lies: Science, Religion, and Naturalism, New York, NY: Oxford University Press, 2011.
30. Pruss, Alexander R., “The Leibnizian Cosmological Argument”, In The Blackwell Companion to Natural Theology, edited by William Lane Craig and J.P, Moreland, 24-100. Malden, MA: Blackwell Publishing, Ltd, 2012.
31. Pruss, Alexander R., and Joshua L. Rasmussen., Necessary Existence, New York, NY: Oxford University Press, 2018.
32. Rasmussen, Joshua., “A New Argument for a Necessary Being”, Australasian Journal of Philosophy, 89, 2, (2010): 351-356.
33. Rasmussen, Joshua, and Christopher Gregory Weaver, “Why Is There Anything?”, In Two Dozen (or so) Arguments for God: The Plantinga Project, edited by Jerry L. Walls and Trent Dougherty, New York, NY: Oxford University Press, (2018): 137-156.
34. Sedley, David., Creationism and Its Critics in Antiquity, Berkeley: University of California Press, 2007.
35. Smart, J.J.C., “Laws of Nature and Cosmic Coincidences”, The Philosophical Quarterly, 35, 140, (1985): 272-280.
36. Swinburne, Richard., The Christian God, New York, NY: Oxford University Press, 1994.
37. ———., Simplicity as Evidence of Truth, Milwaukee: Marquette University Press, 1997.
38. ———., The Existence of God, 2nd ed, New York, NY: Oxford University Press, 2004.

39. ———., “God as the Simplest Explanation of the Universe”, European Journal for Philosophy of Religion, 2, 1, (2010): 1-24.
40. Thagard, Paul R., “The Best Explanation: Criteria for Theory Choice”, The Journal of Philosophy, 75, 2, (1978): 76-92.
41. Wielenberg, Erik., “Dawkins’s Gambit, Hume’s Aroma, and God’s Simplicity”, Philosophia Christi, 11, 1, (2009): 113-128.
42. Wippel, John F., The Metaphysical Thought of Thomas Aquinas, Washington, DC: Catholic University of America Press, 2000.
43. Zagzebski, Linda Trinkaus., The Dilemma of Freedom and Foreknowledge, New York, NY: Oxford University Press, 1991.